==========

أحمد توفيق المدني " لمحة عن إسهاماته الثقافية ودوره الدبلوماسي في الثورة الجزائرية"

أمال معوشي أستاذ مساعد "أ"، قسم التاريخ جامعة محمد بوضياف المسيلة (الجزائر)

Ahmed Tawfiq Al Madani "Aperçu de ses contributions culturelles et de son rôle diplomatique dans la révolution algérienne"

Ahmed Tawfiq Al Madani "An Overview of His Cultural Contributions and his Diplomatic Role in the Algerian Revolution"

Amel MAOUCHI, MAA, M'sila university (Algeria)
amelmaouchi@yahoo.com

تاريخ الإرسال: 18 – 02 – 2019 تاريخ القبول: 01 – 04 – 2019 تاريخ النشر: 28 – 05 - 2019

الملخص:

يعتبر أحمد توفيق المدني من الشخصيات التاريخية الجزائرية المعروفة والمهمة،التي ساهمتفي بناء الحركة الوطنية،ودعم الثورة التحريرية، فقد كان يتمتع بموهبة كبيرة،وثقافة عالية وحنكة سياسية مكنته من إدارة العديد من المسائل والقضايا في مسارالتاريخ الجزائري، بداية من الحركة الوطنية، وجمعية العلماء المسلمين الجزائريين، التي كان من أهم رجالها المدافعين عن مبادئها التي تصب في اطار العروبة والاسلام، ووصولا إلى الثورة الجزائرية التحريرية التي قام بتمثيلها دبلوماسيا والتعريف بها خارجيا، مستعينا بملكة الاقناع والحس السياسي تارة، وتأليف الكتب والقاء الخطب تارة أخرى. وساعدته ثقافته الواسعة وموهبته العالية في فن الخطابة،وإتقانهللغة العربية والفرنسية،وبعده عن كل الصراعات،على أن يكون من خيرة رجال الاصلاح وممثلي الثورة الجزائرية ضمن وفدها الخارجي،بل كان لسانها الناطق باللغة العربية في القاهرة الذي اكسبها مزيدا من الدعم المادي والمعنوي على مستوى العالم. فكان عن جدارة من الرجال الذين صنعوا النجاح في مجال تخصصهم، وسخروا القلم للدفاع عن الهوية الجزائرية تاريخا وأمة.وترك خلفه أعماله خاصة الكتب التاريخية، شاهدة عن جهده وسعيه في خدمة الدين والوطن.إن هذا ما تسعى هذه المداخلة إلى توضيحه وشرحه بحول الله تعالى، مرورا بنقاط رئيسية تتمثل في تعريف الشخصية، وأهم أعمالها، إلى غاية التحاقها بركب الثورة التحريرية ومساهمتها فيها.

الكلمات المفتاحية: أحمد توفيق المدني، الاصلاح، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، النضال، الثورة الجزائرية، الدبلوماسية، الجزائر.

Résumé:

Ahmed Tawfiq al-Madani est l'un des personnages historiques algériens bien connus et importants que ce soit à l'échelle nationale ou internationale qui ont contribué à l'édification du mouvement national et au soutien de la révolution de libération. Il possédait un grand talent, une haute culture et une grande sagesse politique qui lui ont permis de gérer de nombreux problèmes au cours de l'histoire algérienne, Les érudits musulmans algériens, qui ont été l'un des hommes les plus

==========

importants à défendre leurs principes qui font partie de l'arabisme et de l'islam, et à la révolution algérienne qu'il a représentée diplomatiquement et externalisée, utilisant parfois la reine de la persuasion et du sens politique, Autres discours. Sa grande culture et son grand talent dans le domaine de la parole en public, sa maîtrise de l'arabe et du français, et lointain de tous les conflits, l'ont aidé à devenir l'un des meilleurs réformateurs et représentants de la révolution algérienne au sein de sa délégation externe. Monde Il était bien mérité par les hommes qui avaient réussi dans leur domaine de spécialisation et ridiculisé le stylo pour défendre l'identité algérienne en tant qu'histoire et nation. Et laissé derrière lui son travail, notamment des livres d'histoire, témoin de ses efforts et de son effort au service de la religion et de la patrie. C'est ce que cette intervention cherche à expliquer et à éclaircir au nom de Dieu Tout-Puissant, à travers les points principaux de la définition de la personnalité et son œuvre remarquable et importante pour rejoindre la révolution Algérienne et la contribution à la libération nationale.

Mots-clés:
Ahmed Tawfiq Al Madani, Réforme, Association des érudits musulmans algériens, La lutte, Révolution algérienne, Diplomatie, Algérie.

Summary :

Ahmed Tawfiq al-Madani is one of the well-known and important Algerian historical figures who contributed to building the national movement and supporting the liberation revolution. He had a great talent, a high culture and political wisdom that enabled him to manage many efforts and issues in the course of Algerian history, Algerian Muslim scholars, who was one of the most important men who defend their principles that are part of Arabism and Islam, and to the Algerian revolution that he represented diplomatically and externalized in the whole of the world using the Queen of persuasion and political sense sometimes, Other speeches. His great culture and high talent in the field of public speaking, his proficiency in Arabic and French, and he was always very far from all conflicts, helped him to be one of the best reformers and representatives of the Algerian revolution in her external delegation in the world. He was well-deserved by the men who made success in their field of specialization, and ridiculed the pen to defend the Algerian identity as a history and as a nation. And left behind his work, especially historical books, a witness to his effort and his service of religion and the homeland. This is what this intervention seeks to explain and to lighten in chaaallahAlmighty, through the main points in the definition of his personality, and his most important work, to join the revolution and his contribution in the liberation of Algeria .

Finally, we can conclude that the march of Ahmed Tawfiq Al Madani was characterized by the early struggle for the benefit of his homeland and his Islamic and Arab identity and the issues of all Muslims wherever they were, and the combination

of political work, historical writing, social reform and diplomatic work during the glorious liberation revolution. The Algerian Revolution, which was adopted by the National Liberation Front (FLN) in the Egyptian capital of Cairo, was very productive. The Algerian revolution gained more support and success. Its broad culture, distinctive personality and political experience were among the factors that contributed to its success. He also continues with official and popular political leaders in various Arab and Islamic countries. He also took care of the Algerian students who were studying in Cairo in particular and worked hard to overcome the difficulties that were facing them to complete their scientific tracks.

Keywords:
Ahmed Tawfiq Al Madani, Reform, Association of Algerian Muslim Scholars, The Struggle, Algerian Revolution, Diplomacy, Algeria

مقدمة:

ساهمت العديد من الشخصيات الجزائرية المثقفة في بناء الحركة الوطنية والثورة الجزائرية، بما قدمته من إنتاج فكري، ونضال سياسي وثوري ضمن تيارات فكرية مختلفة، وعمل جاد ومتواصل على المستوى الداخلي الخارجي. ويعتبر الشيخ أحمد توفيق المدني من بين هذه الشخصيات، بل هو علم من أعلام الجزائر بدأ نضاله السياسي ضد الاستعمار الفرنسي مبكرا من تونس البلد الذي احتضن عائلته وولد به، واهتم إلى جانب ذلك بقضايا المسلمين، وطيلة حياته قدم الكثير للوطن والامة الجزائرية والهوية الاسلامية، ووقف في مواجهة الاستعمار الفرنسي بالقلم واللسان مساهما في إثراء الحياة السياسية والفكرية الثقافية، والتعريف بالثورة الجزائرية المباركة فماهي أهم اسهاماته في الميدان الثقافي؟ وكيف أدار العمل الدبلوماسي لصالح الثورة الجزائرية من موقعه في القاهرة، ضمن الوفد الخارجي لجبهة التحرير الوطني؟ وماهي أهم إنجازاته في هذا الجانب؟

1/ مولده ونشأته:

ولد أحمد توفيق بن محمد بن أحمد بن محمد المدني القبي الغرناطي، في تونس بـ 24 جمادى الثانية 1317 مالموافق لأول نوفمبر 1899م

والده هو محمد بن أحمد المولود بالجزائر عام 1825 م،درس بالجامع الكبير آما جده فهو أحمد بن محمد المدني - نسبة الى المدينة المنورة- كان أمين الامناء أي شيخ العاصمة. هاجرت أسرة أحمد توفيق وأسرة جده لأمة من[1].

1-يوجد اختلاف حول تاريخ ميلاده بين عدد من الباحثين ، وحسب ما أشار اليه الباحث عبد القادر خليفي نقلا عن نجل المعني المدعو محمد إسلام المدني أن تاريخ ميلاد والده هو 1 نوفمبر 1898 م وهو أيضا ما أكده في كتاب حياة كفاح الجزء الثالث ،حين كتب مقدمة لأثار الاستاذ أحمد توفيق المدني ، مبررا أن تونس يومئذ كانت تفتقر إلى نظام الحالة المدنية، وبعد تعرض والده لمحنة السجن طعن محاميه في الحكم بدعوى أن موكله من مواليد 16جوان 1899 م . وهو تاريخ الميلاد الذي بقى في أوراقه الخاصة . للمزيد ينظر: أحمد توفيق المدني، حياة كفاح مذكرات مع ركب الثورة التحريرية ،ج3، طبعة خاصة ،عالم المعرفة ،الجزائر ،2010،ص.8.

الجزائر الى تونس[2] اثر ثورة المقراني 1871 م وما صاحبها من سياسة فرنسية قمعية ضد الجزائريين المسلمين. فهو إذن سليل عائلة جزائرية أجبرتها الحالة الصعبة بعد الاحتلال على الهجرة وترك الموطن والديار[3] بحثا عن الاستقرار والسلام.

كان جده تاجرا غنيا مما وفر له حياة مقبولة جدا إذ نشأ في منزل فخم، وتربى في أسرة ثرية وملتزمة،أحاطته والدته بعناية خاصة،وعلمته القران والحديث والأخلاق. وكان أبوه يأخذه معه للصلاة ويربيه على مكارم الاخلاق والحكمة ،ويذكره بوطنه الجزائر وما أحدثه الاستعمار فيه من ألام[4].فشب الطفل على روح التدين والوطنية ثم أفنى عمره في خدمتها.

وبالنسبة لتعليمه فقد زاول أحمد توفيق المدني دراسته الابتدائية والثانوية وتعليمه العالي بالزيتونة. ففي البداية أدخله والده الكتاب عند بلوغه الخامسة من العمر،فتعلم القراءة والكتابة والقرآن ،وتكون تكوينا حسنا للدخول إلى المدرسة القرآنية[5]التي كان مديرها زيتونيا هو محمد صفر،من زعماء الحركة الاصلاحية فتلقى على يد شيوخها مبادئ اللغة العربية، وعلوم الدين،والحسابوالكيمياء والطبيعة، ومبادئ اللغة الفرنسية.وفي عام 1913م انتقل إلى الدراسة في جامع الزيتونة، كما درس في المدرسة الصادقيةوالخلدونية[6] العلوم اللغوية والدينية والتاريخ والفلسفة والاجتماع.[7]

وأيضا : عبد القادر خليفي ،أحمد توفيق المدني ودوره في الحياة السياسية والثقافية بتونس والجزائر 1899-1983،رسالة ماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر ،قسم التاريخ والاثار ،جامعة منتوري ،قسنطينة ،2006-2007،ص48.

2-أبو عمران الشيخ وأخرون ،معجم مشاهير المغاربة ،المؤسسة الجزائرية للطباعة ،جامعة الجزائر،1995 ، ص483.

3-أحمد توفيق المدني ،حياة كفاح ،ج3،المصدر السابق 7.

4-أبو عمران الشيخ وأخرون ،المرجع السابق ، ص 483.

5-عبد القادر خليفي، المرجع السابق،ص.55

6-تعتبر الصادقيةوالخلدونية من أهم المراكز التعليمية العربية في تونس، فتحت الصادقية أبوابها بـ 27 فيفري 1875،وهي نسبة الى أمير العصر محمد الصادق باي (1859-1882)،وهو من أصدر الامر العلني بإحداث مكتبها المسمى "بالمدرسة الصادقية" .أما بالنسبة للخلدونية أو كما اطلق عليها في البداية "الجمعية الخلدونية "نسبة للمؤرخ العلامة عبد الرحمان بن خلدون ،فقد وافقت حكومة الحماية على قانونها الاساسي عام 1896 م بفضل سياسة الانفتاح التي تبناها المقيم العام الجديد في تونس "روني ميلي" الذي عين حينها حديثا عام 1894. واستطاعت هاتين المدرستين أن تجذبا اهتمام التونسيين وتقدما تعليما عربيا إسلاميا ،وتعليما عصريا يقوم على اللغات الاجنبية كالفرنسية والايطالية والعلوم الفكرية الاخرى .للمزيد ينظر: خير الدين شترة ،الطلبة الجزائريون بجامع الزيتونة 1900-1956م ،ج1،دار البصائر الجزائر ،2009،ص ص 446-468.

7-أبو عمران الشيخ وآخرون، المرجع السابق ،ص 43.

وكان شغوفا بالمطالعة مما ساهم في تكوينه وتحصيله العلمي خاصة في التاريخ.[8] ولان الوضع الثقافي في تونس كان مختلفا قليلا عن الجزائر، إذ كان بإمكان النخبة التونسية أن تكون مزدوجة اللغة دون أي حرج، وفي حالة كانت أحادية اللغة فإنها لم تكن منغلقة على نفسها [9]. لذا لا غرابة في أنه أتقن اللغة العربية والفرنسية ، دون أن تضيع هويته فلم تكن الفرنسية عنده إلا لغة يستخدمها للعلم ،مستفيدا من المدرسة القرآنية التي حصنت هويته الاسلامية ، وأعدته إعدادا جميلا للكتابة والخطابة .

واللافت للنظر في شخصيته أنه منذ صغره وفي المراحل الاولى لدراسته في الكتاب أظهر اهتمامه المبكر بالكفاح ورفض الاستعمار ،حتى أنه ساهم مع أقرانه في انشاء جماعات تنادي بالثورة ضد الاحتلال الفرنسي. فما إن حلت سنة 1915م حتى سجل نشاطا ملحوظا في لجنة صغار الثوار التونسيين ،التي تؤمن بالكفاح المسلح وسيلة وحيدة لتحقيق استقلال تونس،وبقية بلدان المغرب العربي[10].وأدت مشاركته في الحياة السياسية التونسية من عمل في الصحافة والحياة الحزبية إلى جلب نقمة الادارة الفرنسية عليه، التي انتهت بنفيه الى الجزائر عام 1925 م[11].

وكان قبل تاريخ نفية قد تعرض الى محنة السجن صغيرا حين اغتنم أحداث الحرب العالمية الاولى ليكوّن مع رفاقه خلية من الطلبة المناضلين المؤمنين بالكفاح المسلح كما سبقت الاشارة،فقبض عليه يوم 14 فبراير 1915 م وأدخل السجن حتى شهر نوفمبر 1918[12]م، بتهمة المساس بالسيادة الوطنية. وعندما أتم أربعة سنوات في السجن تدبر محاموه أمر الافراج عنه، وتخفيف مدة عقوبته، بدعوى أنه كان صغيرا ، ومع أنه سجن إلا أنه بقي قوي العزيمة ثابتا على مبادئه،ولم ينل منه السجن في شيء،بل ازداد اصرار،واستغل هذه الفترة العصيبة في تكوين نفسه وتعلم المزيد من الفرنسية عن طريق مطالعته للكتب، والمجلات والروايات التي كان يحصل عليها في سجنه[13].فكان كمن ينظر الى النجوم في السماء غير مبال بالوحل في الطريق،جاعلا من صعوبات حياته دافعا قويا للعطاء و التميز.

وقاده عمله النضالي الى التعرف والاحتكاك بزعيم الحركة الوطنية التونسية ذي الاصول الجزائرية عبد العزيز الثعالبي[14] .فكان من بين مؤسسي الحزب الدستوري عام 1920،ورئيس تحرير مجلة افريقيا في عام

8-فارس كعوان ،المؤرخون الجزائريون ونمو الوعي التاريخي رسالة دكتوراه قسم التاريخ جامعة منتوري ،قسنطينة ،2011-2012،ص353.

9- أبو القاسم سعد الله ،تاريخ الجزائر الثقافي ،ج7، طبعة خاصة ،عالم المعرفة ،الجزائر،2011،ص 418.

10-أحمد توفيق المدني ،حياة كفاح،ج3،المصدر السابق،ص7.

11-أبو القاسم سعد الله،المرجع السابق،ص 418.

12-فارس كعوان،المرجع السابق،ص 354.

13-أحمد توفيق المدني ،حياة كفاح ،ج3،المصدر السابق،ص8.

14-عبد العزيز الثعالبي رجل سياسي ومفكر إسلامي تونسي من أصل جزائري ،إذ تنتمي عائلته الى العلامة عبد الرحمان الثعالبي .ولد بتونس 1874،وتعلم فيها وله هناك إسهامات سياسية عديدة .وهو صاحب كتاب "تونس الشهيدة " الذي نشر عام 1919 م

1921[15]، وكان متحمسا للقضية الدستورية وسافر في بعثة باريس،تولى حفظ أسراره وأوراقه،وانتخب عضوا في لجنته التنفيذية ،كما عين كاتبا عاما مساعدا فيها بالعربية، وتولى لمدة إدارة مجلة "الفجر "الحزبية ،ونشر فيها وفي غيرها مقالا يوميا في السياسة الخارجية[16].

وبكل نشاط وعزم انغمس المدني في الحياة السياسية والثقافية التونسية ،فكانت له اسهامات ونشاطات فكرية كثيرة هناك بين عامي 1915م و1925م ، رفقة رفاق دربه من النخبة المصلحين الذين اجتمعوا على حب الوطن والعداء لفرنسا[17].

ولم يتوقف النشاط السياسي لأحمد توفيق المدني عند القضايا التونسية،وقضايا الحزب الدستوري فقط،بل كان مهتما بقضايا المغرب العربي والعالم الاسلامي،فقد تشكلت لديه منذ بداية تكوينه المعرفي ميول سياسية وطنية ذات خلفية عربية وإسلامية ، وظهرت هذه الميول في العديد من المواقف ذات الطابع السياسي التي عكست أهم توجهاته وهي رفضه المطلق للاستعمار الذي لحق الدول الاسلامية، فكان على سبيل المثال على دراية وتعاطف كبير مع ليبيا بعدما هاجمتها إيطاليا عام 1911 م،كما كان يحمل ولاء للدولة العثمانية،ولما انطلقت حرب التحرير الريفية بمراكش وكانت في قمتها،شجعها وكتب عن بطولة الريفوزعيمها[18] عبد الكريم الخطابي[19]،كما ندد بالحرب التي خاضتها فرنسا حينها لاستيلاء على الريف المغربي كله، ومن خلال مقاله في

وانتقد فيه بشدة السياسة الاستعمارية .أسس "حزب الدستور الحر" عام 1920،ومارس من خلاله العديد من النشاطات السياسية ،ووقف في وجه فرنسا من خلالها ،اعتزل السياسة بسبب مضايقة "الدستور الجديد "له ب زعامة الحبيب بورقيبة .توفي في تونس عام 1944 للمزيد ينظر :أبو عمران الشيخ وآخرون ،المرجع السابق ،ص- ص 126-127.

15-شارل روبير أجيرون ،تاريخ الجزائر المعاصرة من انتفاضة 1871 الى اندلاع حر التحرير ترجمة محمد حمداوي وآخرون،شركة دار الامة ، الجزائر ،2013،ص517.

15-شارل روبير أجيرون ،تاريخ الجزائر المعاصرة من انتفاضة 1871 الى اندلاع حر التحرير ترجمة محمد حمداوي وآخرون،شركة دار الامة ، الجزائر ،2013،ص517.

16-أبو عمران الشيخ واخرون ،المرجع السابق، ص484.

17-للاطلاع على اسهاماته وإسهام النخبة الجزائرية في الحياة السياسية والفكرية التونسية يراجع :خير الدين شترة، اسهامات النخبة الجزائرية في الحياة السياسية والفكرية التونسية 1900-1939،طبعة خاصة ،دار البصائر ،الجزائر 2009،وأيضا :خير الدين شترة، الطلبة الجزائريون بجامع الزيتونة 1900-1956 ،المرجع السابق.

18-خير الدين شترة ،الطلبة الجزائريون بجامع الزيتونة ،1900-1956 ،ج2،طبعة خاصة ،دار البصائر ، الجزائر ،2009، ص1177،1155،1145،1144 .

19-محمد بن عبد الكريم الخطابي: المعروف اختصارا بعبد الكريم الخطابي قاوم الاستعمار الفرنسي كما قاوم الاستعمار الاسباني مقاومة خلدها التاريخ في إقليم الريف منذ 1920 ،وفي 26 مايو 1926 ،سلم نفسه للقوات الفرنسية التي كانت تهاجم من الجنوب والغرب الشرقي ،وفي الوقت الذي انزلت فيه القوات الاسبانية الى البر من البحر ،واحتلت جل بني ورباغل معقله الاخير .تعرض بعدها لحياة المنفى التي قضى بها عشرين سنة الاولى في جزيرة "لاروينون "في المحيط الهندي .وفي سنة 1947 م قررت فرنسا نقله الى جنوب فرنسا لأهداف سياسية ،لكنه أثناء مروره ببور سعيد المصرية نزل وطلب اللجوء السياسي الذي حصل

جريدة افريقيا بتاريخ 25 ماي 1925 م المعنون: بـ "الحقيقة عن حوادث الريف ليحيا الريف حرا مستقلا"فضح السياسة الفرنسية التوسعية للرأي العام، لكن بعد مرور عشرة أيام فقط عن صدور المقال،تلقى قرارا بالإبعاد الى الجزائر يوم 06 جوان 1925 م ، ونقل بسرعة من تونس وسلم إلى محافظ شرطة عنابة [20] ليرجع إلى وطنه الاصلي ويبدأ مسيرة جديدة في الكفاح والنضال استمرت حتى وفاته في 18 أكتوبر 1983م بالجزائر العاصمة[21].

عند وصوله إلى الجزائر بعد النفي ،استقر أخيرا بالعاصمة وجرب التجارة إذ فتح محلا تجاريا لبيع منتجات تونسية فلم يوفق فيها[22] فعاد الى أصله وما يجيده من كتابة وخدمه للثقافة والعمل السياسي ، ووصفه في ذلك "(روبير أجيرون) بأنه :«لم يتأخر في الانضمام الى فريق الشهاب ، حيث أصبح محرر الافتتاحية السياسية الرئيسي فيها،وأكد جدارته كأكبر داعية في الوطنية، وكان الموجه الخفي لفكر شكيب أرسلان ومتفتحا على القضايا السياسية الدولية ومتقنا للغة الفرنسية ، وكان نشاطه في مجال الصحافة والسياسة كبيرا للغاية »[23].

لقد كان تاريخ نفيه بداية عهد جديد له في الجزائر، إذ أصبح مؤثرا في الحياة السياسية فيها،خاصة الميدان الاصلاحي المقترن بالسياسة،وشارك في تنشيط العمل الثقافي والصحفي والتأليف،واهتم حتى بإنشاء بعض المدارس الحرة ،وساهم في تأسيس نادي الترقي بالعاصمة [24]،فانخرط مع جماعته عام 1926 م ،وساهم أيضا في تنشيط الجمعيات الخيرية بالعاصمة.وفي عام 1928 م اتخذ بشارع "لا لير "[25] مكتبا خاصا للعمل بقي فيه ثماني وعشرين سنة [26] كلها عطاء واجتهاد.

والى جانب حياته في الجزائر بقي وفيا محبا لتونس، يزورها من حين لأخر، زيارة لا تتجاوز النصف شهر بإذن من السفارة الفرنسية بتونس،حتى قررت السفارة رفع قرار الابعاد عليه عام 1932 م ، فاصبح حرا في الزيارة متى أراد فكان كثيرا ما تردد عليها بعد الحرب العالمية الثانية قصد رؤية الاهل ودراسة ومناقشة بعض القضايا السياسية هناك[27].

عليه ، واستمر هناك في ممارسة السياسة ولم يعد الى المغرب وظل في منفاه الثاني إلى أن توفى يوم 06 فبراير 1963 م ودفن بمقابر الشهداء بالقاهرة ينظر: أبو عمران الشيخ وآخرون ،المرجع السابق ،ص- ص. 186-190.

20-عبد القادر خليفي ،المرجع السابق،ص -ص. 82-83.

21-عاشور شرفي ،قاموس الثورة الجزائرية 1954-1962، دار القصبة ،الجزائر ،2007،ص ص 320-321.

22-المرجع نفسه،ص 320.

23-شارل روبير أجيرون ،المرجع السابق ،ص517.

24-أبو القاسم سعد الله ، المرجع السابق،ص418.

25-تغير اسمه بعد الاستقلال وأصبح يدعى "أحمد بوزرينة"

26-أبو عمران الشيخ وأخرون ،المرجع السابق،ص484.

27-خير الدين شترة ،الطلبة الجزائريون بجامع الزيتونة ،ج2،المرجع السابق،ص. 1177-1178

ولان أحمد توفيق المدني كان مرتبطا أشد الارتباط بالإصلاح ومحاربة الفساد والاستعمار الفرنسي،فإن له في هذا المسار الكثير من الاسهامات التي لا تعد ولا تحصى، وعلى رأسها دوره الفعال في جمعية العلماء المسلمين الجزائريين[28]هذه الجمعية التي اعتبرت تتويجا لمجهودات المثقفين المسلمين الجزائريين عام 1931م، والتي أسست بهدف تنقية الدين من الخرافات والمعتقدات الباطلة وعملت على عودة المجتمع إلى الكتاب والسنة وسيرة الصحابة [29] رضوان الله عليهم.وكانت أقوى رد على الاحتفالات المئوية[30]التي أقامها الاحتلال الفرنسي واتخذت شكلا من أشكال الاستفزاز والتشفي في المسلمين، وكأن فرنسا من خلالها لم تحتفل بمرور قرن على الاحتلال فقط وإنما كانت تحتفل بتوصلها إلى القضاء على مقومات الشخصية الجزائرية،وعلى المقاومة المسلحة[31].

و بدأت مسيرته مع الجمعية منذ اللبنة الاولى التي وضعت لتأسيسها، إذ كتب-حسبه- رسائل الدعوة لاجتماع العلماء [32] الذي تم يوم 05 ماي 1931م في مدينة الجزائر بنادي الترقي[33].لتولد جمعية دينية ثقافية إصلاحية ذات بعد سياسي و قاعدة شعبية لا مثيل لها في الجزائر.حرر المدني القانون الاساسي لها حيث قال :"أما أنا فقد اعتكفت في مكتبي ثلاثة أيام ،سطرت فيه للجمعية قانونها الاساسي بما لا يخرج عن نطاق القوانين المعروفة الأخرى[34]". وبعدها لم ينقطع عنها وعن منهجها وأهدافها الاصلاحية، وقد انتخب بالإجماع أمينا عاما لها وأحس حينها حسب قوله : « .... وهكذا وضعت في مداري وأصبحت أعمل علنا جهارا في الجمعية التي أسهمت في تأسيسها سنة 1931 م ، وكنت لها دائما المشير والمؤيد النصير.»[35]

28-يمكن الرجوع إلى مذكراته للاطلاع على دوره في جمعية العلماء المسلمين ،رغم أن هناك بعض المسائل فيها لم يقبلها عدد من المفكرين والمعاصرين له .أحمد توفيق المدني ،حياة كفاح (مذكرات)،الجزء الثاني ، طبعة خاصة ،عالم المعرفة،الجزائر ،2010 ، ص 254 وما بعدها.

29-محفوظ قداش ،تاريخ الحركة الوطنية الجزائرية ،ترجمة امحمد بن البار ، ج1، طبعة خاصة ، دار الامة ، الجزائر،2011،ص 474.

30-كانت الاحتفالات المئوية في الجزائر عبارة عن إشهار لتمجيد ما وصل إليه الاستعمار الفرنسي ، وبدأت فكرتها منذ 14 ديسمبر 1923م،واستمرت الاستعدادات المادية والمعنوية لها بصورة كبيرة ،وخلفت بعد وقوعها ردود فعل كثيرة خاصة على مستوى الحركة الوطنية للمزيد ينظر :شارل روبير أجيرون ،المرجع السابق ، ص- ص. 641-654.

31-محمد الطيب العلوي، مظاهر المقاومة الجزائرية 1830-1954، منشورات المتحف الوطني للمجاهد ،المؤسسة الوطنية للاتصال والنشر والاشهار ،الجزائر ،1994،ص 109.

32-أحمد توفيق المدني،حياة كفاح (مذكرات)،ج 2،ص ص 260-266 .

33-شارل روبير أجيرون ، المرجع السابق ، ص. 523.

34- أحمد توفيق المدني، حياة كفاح (مذكرات)،ج 2 ،المصدر السابق، ص. 260

35-المصدر نفسه، ص. 563.

كان أحمد توفيق المدني على دراية بأحداث وطنه وغيرها من أحداث المغرب العربي، والسياسة العالمية والعربية،لذا كانت له مقالات عديدة وثرية في "الشهاب "، وأثناء الحرب العالمية الثانية ساهم في تحرير جريدة الاصلاح للعقبي، و بعد الحرب أصبح من محرري جريدة "البصائر" خاصة باب السياسة العالمية، و في غياب الشيخ الابراهيمي أصبح هو رئيس تحرير" البصائر" وقد حرر فيها مقالات افتتاحية هامة أثناء الثورة التحريرية.[36]

2/ من أثاره و إسهاماته التاريخية :

كما هو معروف ترك أحمد توفيق المدني الكثير من المؤلفات القيمة،التي حفظت بين دفتيها العديد من الاحداث التاريخية الهامة، أصدرها خلال العشرينيات والثلاثينيات من القرن العشرين[37]، معظمها في التاريخ العام للمغرب العربي وشمال افريقيا والجزائر على وجه الخصوص منها: "المسلمون في جزيرة صقلية وجنوب ايطاليا"، الذي يعد إلى حد كبير ضمن تاريخ المغرب العربي، بالإضافة إلى مسرحية "حنبعل "الادبية –التاريخية. ونشرت كل كتبه وهو في الجزائر باستثناء ثلاثة مؤلفات وهي[38]:

-تونس وجمعية الامم ،1923 المترجم إلى اللغة الفرنسية وخدم القضية الوطنية التونسية.

-والحرية ثمرة الجهاد ،وعالج نضال ايرلندا ضد الانجليز ، صدر بتونس 1923.

-الاجزاء الثلاثة الاولى من تقويم المنصور.

أما الكتب التي أصدرها في الجزائر،فكانت جميعا في تاريخ وجغرافية الجزائر، إلا ما يفيد عنوانها غير ذلك مثل :حنبعل، وقرطاجنة وصقلية[39]. والحقيقة أنه امتاز بتنوع نشاطاته بين الكتابة في المجال السياسي والتاريخ والأدب، ولو تخصص للتاريخ وحده لكان أبرز المؤرخين الجزائريين لإلمامه باللغة العربية والفرنسية، ولحيويته وحماسه[40] الفعال .وقد شهدت مؤلفاته العديدة والغنية التي تصدرت أعمال الناشطين الاخرين للحركة الاصلاحية، بثقافته الواسعة،وموهبته الادبية الخاصة والمتميزة[41].

ويمكن تتبع أهم أعماله التاريخية كمايلي :

36-أبو القاسم سعد الله ،المرجع السابق، ص418.

37-المرجع نفسه ،ص 418.

38-المرجع نفسه، ص 419.

39-أبو القاسم سعد الله ،المرجع السابق، ص 419.

40-عبد القادر خليفي ،المرجع السابق ،ص103.

41-علي مراد ،الحركة الاصلاحية الاسلامية في الجزائر ،ترجمة محمد يحياتن ،طبعة خاصة ،دار الحكمة ، الجزائر ،2007،ص 138.

-تقويم المنصور :الذي كان في شكل مجلة قدم في خمسة أجزاء،صدرت الثلاثة الاولى بتونس عام 1922م، وصدر الجزآن الاخران الرابع والخامس في الجزائر سنوات 1926-1929 م[42].تلاه -قرطاجنة في أربعة عصور أو تاريخ شمال افريقيا من عصر الحجارة إلى الفتح الاسلامي، طبع بتونس عام 1927.تناول هذا التأليف تاريخ افريقيا الشمالية خلال أربعة قرون تحت حكم قرطاجنة.[43]

-كتاب الجزائر الذي ظهر عام 1932 م وهو مصنف سياسي، وتاريخ وطني، موسوعة الحركة الوطنية في الجزائر[44] وجاء ردا على الاحتفالات المئوية الفرنسية التي نبشت الجروح [45] وجرحت المشاعر.فكان معارضة صريحة لما زيفته الاقلام الفرنسية في التاريخ الجزائري،رسخ من خلاله توفيق المدني الوطنية الجزائرية، وبعث روح الهوية القائمة على المبادئ الثلاث :الاسلام دينا، العربية لغة ،الجزائر وطنا [46].

-محمد عثمان باشا داي الجزائر 1766-1791، صدر عام 1937 وهو عن حياة أطول الدايات حكما وربما أصلحهم [47].حيث تناول سيرته ، حروبه، أعماله ونظام الدولة والحياة العامة في عهده. وفي اعتقاد أحمد توفيق المدني أن هذا الكتاب هو ثالث خدمة قدمها للجزائر بعد جمعية العلماء وبعد كتاب الجزائر[48] ويتوقف القارئ في هذا الكتاب عند الإهداء المميز الذي منحه الكاتب للرجل الخالدة ذكراه بإذن الله تعالى ،رفيق دربه في ميدان الاصلاح والتغير الشيخ عبد الحميد بن باديس . كما يشد الانتباه فيه ذلك الدفاع المستميت للفترة العثمانية في الجزائر، والتي استهل الكاتب بها تمهيده بقوله «لا أعرف أن عصرا من عصور التاريخ في بقعة من بقاع الارض ناله من الحيف والجور، ومن تلطيخ السمعة وامتهان الكرامة ما نال من ذلك عصر حكم الاتراك العثمانيين بأرض الجزائر» [49].

-المسلمون في جزيرة صقلية وجنوب إيطاليا ،الجزائر ،1946 م ، ومن خلاله دعا المؤلف إلى تنشيط حركة الكتابة حول المدنية الاسلامية بهذه الجزيرة،لإبراز الحضارة ،ووجهها المشرق بالمنطقة[50] .

42-عبد القادر خليفي ،المرجع السابق ،ص 104.

43-فارس كعوان ،المرجع السابق، ص 357 ويشير إلى هذا الكتاب أحمد توفيق المدني في كتابه حياة كفاح (مذكرات ،ج2، المصدر السابق ، ص 161 وما بعدها.

44-شارل روبير أجيرون، المرجع السابق ،ص517 وأعطى توفيق المدني نبذة عن هذا الكتاب في مذكراته ، ج2، المصدر السابق، ص 287 وما بعدها.

45-أبو القاسم سعد الله ،المرجع السابق ،ص420.

46-عبد القادر خليفي ،المرجع السابق، ص108.

47-أبو القاسم سعد الله ،المرجع السابق،ص420.

48- أحمد توفيق المدني، حياة كفاح (مذكرات)،ج 2،المصدر السابق ،ص 382.

49- أحمد توفيق المدني، عثمان باشا داي الجزائر1766م-1791م،المؤسسة الوطنية للكتاب ،الجزائر، 1986، ص5-7

50-عبد القادر خليفي ،المرجع السابق،ص113.وخصص أحمد توفيق المدني لهذا الكتاب في مذكراته من الجزء الثاني قسما للحديث عنه، من الصفحة 480 وما بعدها.

- جغرافية القطر الجزائري :الجزائر ،1948م ،وهو الاول من نوعه بالعربية عن جغرافية الجزائر وزود بالصور والرسوم الجغرافية،وأعطى وصفا شاملا للجزائر[51] ووجه إلى طلبة المدارس الواقعة تحت إشراف جمعية العلماء، وسد في الواقع حينها فراغا كبيرا، وكان مناسبا للناشئة للتربية الوطنية، إذ ربط بين التاريخ والجغرافيا وكتب بمشاعر فياضة في السياسة الوطنية [52].

-كتاب هذه هي الجزائر،الذي نشر بالقاهرة 1957 م وعرّف بتاريخ الجزائر وثورتها المباركة، وأهداه أحمد توفيق المدني، لشهداء الثورة التحريرية، اعترافا بفضلهم وتخليدا لذكراهم.[53] وهو من كتب الدعاية السياسية والإعلامية للجزائر وثورتها حينها[54].

-حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا 1492-1792.صدر بالجزائر عام 1968م،والكتاب كما بين عنوانه تحدث عن تاريخ أحداث عسكرية وسياسية،معظمها حدثت على شواطئ الجزائر أو بمواقع متعمقة بالداخل.ويعد الكتاب من أكثر المؤلفات باللغة العربية توسعا في هذا الموضوع[55].

-تحقيق مذكرات الحاج أحمد الشريف الزهار نقيب أشراف الجزائر، صدر بالجزائر عام 1974م[56]. وكانت النسخة الوحيدة على وشك الضياع كما أكد ذلك محققه، الذي قطع حينها وعدا للسيد الشيخ سيدي محمود الشريف الزهار،نقيب الاشراف الاخير عندما سلمه المخطوطة،وكانا انتزعاها انتزاعا من يد السيد "ميرانت" مدير الشؤون الاهلية بالولاية العامة بالجزائر. وتضمن الوعد بأن ينشر المدني النسخة،ويشيد بالمؤلف الحقيقي لها[57]

.

-حياة كفاح،وهي عبارة عن مذكرات في ثلاثة أجزاء صدرت بتواريخ مختلفة. ولاحظ بعض معاصريه وبعض المفكرين، أنه كان كثير التمجيد لنفسه،ولمواقفه،وإبراز شخصيته أثناء وجوده في معترك الحياة السياسية مع جمعية العلماء المسلمين، ومع جبهة التحرير الوطني [58]،مما رفضه بعض المصلحين المعاصرين وأتباعهم ممن عايشوا الحركة الاصلاحية،فأنكروا عليه ذلك وردّوا عليه كتابيا في حياته،وقام محمد الطاهر فضلاء "بجمع هذه

51- أحمد توفيق المدني ،حياة كفاح ،ج2، المصدر السابق ص548.

52-أبو القاسم سعد الله ،المرجع السابق، ص421.

53-فارس كعوان ،المرجع السابق ،ص 366.

54-أبو القاسم سعد الله ،المرجع السابق ،ص 421.

55-عبد القادر خليفي ،المرجع السابق ،ص 116.

56-أبو القاسم سعد الله ،المرجع السابق ،ص 421

57-أحمد الشريف الزهار، مذكرات الحاج أحمد الشريف الزهار ،تحقيق أحمد توفيق المدني، ط.2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر ،1980،ص5.

58-أبو القاسم سعد الله ،المرجع السابق، ص- ص. 418-421.

الردود [59] في كتابه "التحريف والتزييف في حياة كفاح.[60] وتصدى المدني من جهته لهذه الحملة كتابيا مدافعا عن نفسه،دفاعا قويا بالحجج والبراهين،دون الخروج عن آداب الحوار مستعينا بالصبر والحكمة[61].

ومهما يكن فإن أحمد توفيق المدني، رفع قلمه للكتابة التاريخية،في فترة حرجة جدا من تاريخ الامة الجزائرية، وبحث في عدة مواضيع تاريخية،زوّد من خلالها الناشئة بالمعلومات المرتبطة بالقيم الوطنية ، فكان ذا نزعة دينية ووطنية في معالجة الوقائع التاريخية،وأشاد به خيرة من رجال عصره ومن تلاهم من المؤرخين والباحثين المتخصصين الجزائريين كالدكتور عبد الكريم بوصفصاف، عبد المالك مرتاض،والباحث عبد القادر خليفي [62] وشيخ المؤرخين أبو القاسم سعد الله الذي وصف حياة المدني بالنموذج للرجل المكافح منذ الشباب المبكر.[63]فدوره في الحقيقة لا ينكره عاقل في خدمة أهداف الجمعية ،وخدمة الثورة الجزائرية اذ انتدبته جبهة التحرير الوطني عام 1956 م كعضو ثالث لتمثيلها في القاهرة . واستمر دوره حتى بعد الاستقلال، إذ عين وزيرا للأوقاف في أول حكومة جزائرية، واستمر في عطائه حتى وافته المنية بالجزائر العاصمة في 18 أكتوبر 1983 م [64].
ومن المؤكد أن أي مكتبة جزائرية أكاديمية الان لا تخلو من مؤلفاته،التي استعان ويستعين بها الكثير من الباحثين،وطلبة العلم والمعرفة في مختلف المسائل التاريخية، وذكراه حية في النفوس، فرحم الله الرجل وجعله من أهل الجنة وجمعه بالصالحين فيها.

3/ مع ركب الثورة التحريرية[65]:

أكمل أحمد توفيق المدني مشواره النضالي الذي بدأه صغيرا، وأفنى شبابه فيه بانضمامه إلى ركب الثورة التحريرية التي طالما تنبأبها بحسه الثوري الكامن في أعماقه،والذي لم يفارقه أبدا ويحتملأنه علم بها قبل انطلاقها عن طريق أحد الرجال الذين كان على اتصال بهم [66]،كما أشار إلى ذلك في مذكراته [67]وقال بكل تواضع

59-أبو عمران الشيخ وأخرون ،المرجع السابق ، ص- ص. 484-485.

60-عنوان الكتاب :محمد الطاهر فضلاء ،التحريف والتزييف في كتاب حياة كفاح ،ط.1، دار البعث قسنطينة ، 1982 م تناوله بالشرح والوصف والدراسة عبد القادر خليفي ، المرجع السابق ،ص. 21 وما بعدها.

61-خصص الباحث عبد القادر خليفي مبحثا كاملا في دراسته حول أحمد توفيق المدني، "للرد على الرد" ،أي التعليق حول الحملة التي طالت مترجمه ،وتعرض الباحث للقضية من عدة زوايا بطريقة موضوعية ويبقى الحكم في الاخير حسب القناعات الشخصية ،وقوة الادلة في الدنيا أما الاخرة فدون شك عدالة الله مطلقة. للمزيد ينظر: عبد القادر خليفي ،المرجع السابق ،ص-ص. 240-250.

62- يراجع المرجع السابق ، ص- ص. 101-104.

63-أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق ، ص. 418.

64-أبو عمران الشيخ وأخرون ،المرجع السابق ،ص 485.

65-اعتمدت في هذه الجزئية بدرجة كبيرة على ما أقره أحمد توفيق المدني في مذكراته حياة كفاح الجزء الثالث الذي حمل عنوانا جزئيا :مع ركب الثورة التحريرية.

66-أحمد توفيق المدني ،حياة كفاح (مذكرات) ،ج3، المصدر السابق ،ص. 37

عن مشواره فيها: «أقولها بصراحة وأسجلها أمام الجميع، أنني وإن كنت هيأت للثورة منذ أمد بعيد، لم أكن قائدا من قادتها،ولا بطلا من أبطالها بل كنت خادمها،مطيعا لأوامرها منذ يومها الاول، منفذا لإرادتها بكل ما أوتيت من قوة ومن إيمان،سواء كان ذلك في أرض الوطن أو في مختلف السفارات إلى يوما هذا، وإلى أن ألقى الله لم أكن إطلاقا، أبدا أعمل لفائدة شخصي أو أسعى وراء سمعة زائفة أو أمهد الطريق لمنصب أتبوؤه.»[68]

منذ بداية الثورة التحريرية المباركة وإلى نهايتها وتحقيقها لهدفها المنشود، كانلأحمد توفيق المدني دوره فيها، ومهامه التي أوكلت له للقيامبها،منذ سنواتها الاولىوالتي لم يتأخر في تنفيذها،حيث التزم التزاما كبيرا في خدمة جبهة التحرير الوطني، وكان دبلوماسيا بارعا خطيبا وداعية لصالح التعريف بالثورة ومشروعيتها،والبحث عن الدعم المادي والمعنوي لها، رفقة إخوانه الثوار أو من جمعية العلماء المسلمين التي كان يترأسها آنذاك البشير الابراهيمي ، وكان هو أمينا عاما لها .[69]وفي عام 1956 م سافر مع رفيقه الشيخ عباس بن الشيخ الحسين إلى القاهرة،حيث كان البشير الابراهيمي متواجدا فأعلنوا رسميا انضمام جمعية العلماء لجبهة التحرير انضماما تاما،وحينها عين "المدني" شخصيا في الوفد الخارجي للثورة، وبعدها عضوا في المجلس الوطني[70]،كما كان أيضا مسؤولا عن المكتب الخاص المكلف بالعلاقات العربية بالقاهرة،كما احتل مكانا في الحكومة المؤقتة حيث اسندت إليه وزارة الثقافة في تشكيلتها الاولى، مكلفا بالعلاقات مع الدول العربية، ومكلفا أيضا بالطلبة الجزائريين المقيمين في الجمهورية العربية المتحدة وعضوا دائما في الجامعة العربية[71].

هذه المناصب والمهام وصل إليها تدريجيا،وأسندت إليه لاجتهاده ومقدرته على تسيير الأمور،ولم تكن تشريفا له بل تكليفا من الثورة ومن نفسه أولا لإيمانه العميق بالعمل الثوري ، فمنذ اللحظة الاولى التي أعلنت الثورة فيها عن نفسها ، وحرصا منه على الاستجابة لندائها، قام بالاتفاق مع الشيخ محمد خير الدين،بدعوة أعضاء المجلس الاداري للجمعية، يوم الفاتح نوفمبر 1954 م،بمدينة قسنطينة ودرس المجلس بعض قضاياه الخاصة، ودرس أيضا قضية الحدث الجديد الذي شهدته الجزائر والعالم أجمع. وقرر المجلس بأن الجمعية مساندة للثورة دون تحفظ، أو تهاون أوحذر،[72] فرجال الجمعية أصبحوا منذ اللحظة الاولى للثورة التحريرية ، وإلى يوم النصر، جزء لا يتجزأ من الثورة والكفاح المسلح[73].

67-بخصوص معرفة أحمد توفيق المدني لموعد انطلاق الثورة لم تكن مقبولة عند بعض الكتاب والمفكرين، ومع ذلك يبقى الاحتمال قائما بأنه علم بها للمزيد حول هذه النقطة وردود الفعل حولها ينظر ما كتبه عبد القادر خليفي، المرجع السابق ، ص-ص. 183-184.

68-أحمد توفيق المدني ،حياة كفاح (مذكرات)،ج3،المصدر السابق،ص28.

69-المصدر نفسه ،ص12.

70-فارس كعوان ،المرجع السابق،ص354.

71-أحمد توفيق المدني ،حياة كفاح (مذكرات)، ج.3، المصدر السابق، ص13.

72- أحمد توفيق المدني ،حياة كفاح (مذكرات)،ج3،المصدر السابق،ص37-39-41.

73-المصدر نفسه ،ص92.

ومع تزايد نشاط الثورة داخليا وخارجيا، وتعريفها بنفسها أكثر وأكثر خاصة بعد هجومات 20 أوت 1955م بالشمال القسنطيني ،أصبحت الحاجة ملحة لتجنيد كل العناصر الوطنية.وكان من واجب القيادة تدعيم صفوفها بكفاءات سياسية وفكرية، لتتمكن من مخاطبة العالم والتعريف أكثر بالقضية الجزائرية.[74] ومن هذا الباب تلقى أحمد توفيق المدني دعوة من جبهة التحرير الوطني للالتحاق بوفدها الخارجي بالقاهرة ،للنضال بالقلم واللسان وبذل المساعي المختلفة لنشر الدعوى وجمع المال و السلاح، واتصل به المجاهد "عبان رمضان" حينها موضحا له بأن الجبهة تشعر بنقص كبير بين صفوف وفدها الخارجي وطلب منة الالتحاق [75] قائلا :«فسر إليهم بأسرع ما يمكن ولتعمّر ذلك الفراغ، واعلم أن حظك في الجهاد هنالك يعادل أو يفوق حظك لو أنك عمدت إلى جبل وحملت بين إخوانك السلاح. السلاح يحمله كل المجاهدين أما القلم وأما الكلمة والمسعى الحميد،فلا يقوم بأعبائها إلا الندرة من المجاهدين.»[76]

وكانت هذه الدعوة الرسمية التي تلقاها هي بداية مشواره النضالي الجديد، حيث استجاب لها وأعلم سريعا مجلس العلماء بها فرحبوا بواجبه الجديد، حتى أن الشيخ العربي التبسي –حسب توفيق المدني –قال له :«والله لو استطعت الزغاريد كالنساء لانطلق صوتي مدويا، إلى أن يبلغ الشارع. هذا شرف كبير لك ولجمعية العلماء...»[77]. وللوصول إلى القاهرة سافر أحمد توفيق المدني إلى باريس أولا،حيث وصل إليها يوم 16 مارس 1956 م مدعيا أنه يسعى لعلاج زوجته المريضة،حتى لا يثير الشبهات حول سفره هذا. وتكفل صهره في الجزائر "مولاي أحمد مريوة" بالملف الطبي لعملية التمويه[78].

وتعد القاهرة مركزا هاما للنشاط السياسي والدبلوماسي للثورة الجزائرية كما شكلت نقطة التقاء مهمة للوفد الخارجي، وقاعدة له ولنشاطاته، حتى أن توفيق المدني أكد ذلك بقوله «هي اليوم مركز وفدنا الخارجي ونصيرتنا الاولى ممدتنا بالسلاح والعتاد.»[79] وكان اختيار شخص المدني موفقا لما تمتع به من مهارات وتاريخ حافل بالعمل السياسي،ويذكر عبد القادر خليفي من خلال المقابلة الشخصية التي أجراها مع أبو القاسم سعد الله حول الموضوع، أن هذا الاخير رأى أن جبهة التحرير الوطني قد أحسنت الاختيار بهذا التدعيم،فالرجل ذو صفات مميزة وله قدرة على مخاطبة الامة العربية.[80]

74-عبد القادر خليفي ،المرجع السابق، ص191.

75-أحمد توفيق المدني ، حياة كفاح ،ج3، المصدر السابق، ص147.

76-المصدر نفسه ، ص148.

77-المصدر نفسه ،ص 148.

78-المصدر نفسه ،ص ص 150-151.

79-المصدر نفسه ، ص161.

80- عبد القادر خليفي ، المرجع السابق، ص193.

عند استقرار أحمد توفيق المدني بالقاهرة وقف على ضعف في التنسيق بين الاعضاء،خاصة أعضاء المكتب السياسي الذي مثله محمد خيضر،والمكتب العسكري الذي استقل بأمره استقلالا تاما أحمد بن بلة.كما لاحظ توتر العلاقات على المستوى الشخصي، ومن ذلك ما كان قائما بين الامين الدباغين ومحمد خيضر،كما علم بطرح علال الفاسي[81] زعيم حزب الاستقلال في المغرب،المتمثل في الترويج لـ"مغربه الكبير".[82]

نشاط أحمد توفيق المدني في القاهرة ضمن الوفد الخارجي كما وصفه في صفحات مذكراته حياة كفاح، توزع على العديد من الجبهات،وعمل بكل جهد مخاطبا الشخصيات الرسمية الفعالية والعامة،فاستعان بالخطاب السياسي، والدين، والعاطفة وكل سلاح مشروع له تأثير على تحقيق الهدف، متنقلا بين وسائل الاعلام والدعاية في المساجد، وخلالموسم الحج وغيرها،لإقامة الندوات وإلقاء الخطب في المجالس الرسمية، والاجتماعات المختلفة وحتى على منبر مسجد الازهر الشريف.[83]

وتولى مهمة الترجمة إلى اللغة العربية لبعض الزعماء الجزائريين الذين غلب على لسانهماستخدام اللغة الفرنسية،كما فعل مع خطاب فرحات عباس الذي ألقي في الندوة الصحفية التي عقدت يوم 25 أفريل 1956 م بالقاهرة،وحضرها صحفيون مصريون وأجانب،ووجوه عربية من مختلف الأصقاعممن كانوا حينها في القاهرة. وكان فرحات عباس قد ألقى خطابه بالفرنسية،وتكلم أحمد توفيق بعده بالعربية،كما ترجم كل سؤال عربي إلى الفرنسية، وكل سؤال فرنسي إلى العربية، وتولى أيضا الاجابة على ماطرح من أسئلة بالعربية مع ترجمة ذلك.[84] فكان إتقانه للعربية والفرنسية عاملا مساعدالإيصال أفكاره وأفكار غيره بكل أمانة.

إن الظهور العلني لأحمد توفيق المدني متحدثا باسم جبهة التحرير الوطني ومتوليا الترجمة،أعطى الثورة دعما قويا وبعدا جديدا. فانضمام العلماء، والاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري،بما لهما من وزن سياسي، ومعنوي على الساحة الجزائرية، قد أكسب الجبهة نصرا قويا في صراعها العسكري والإعلامي ضد الاستعمار الفرنسي[85].

وكان لإتقان أحمد توفيق المدني اللغة العربية والفرنسية مع مقدرته على التأليف والكتابة التاريخية، الممزوجة بالحس الوطني وإثبات الهوية العربية الاسلامية للجزائر، دور كبير في دعم الثورة الجزائرية، إذ ألف

81- علال الفاسي (1910-1974) رجل سياسي وعالم اسلامي مغربي مشهور انتقل إلى اسبانيا وفرنسا وسويسرا، والتقى بشخصيات وطنية كثيرة منها شكيب أرسلان. تولى رئاسة حزب الاستقلال ،وحارب فرنسا التي تشددت معه فانتقل سرا إلى القاهرة في مايو 1947.بعد استقلال المغرب مارس الفاسي النشاط السياسي على رأس حزب الاستقلال، وقدم مشروعا لتكوين "مغرب كبير" يضم بعض الاراضي الصحراوية الى المملكة المغربية ،ولم يتحقق مشروعه. للمزيد ينظر :أبو عمران الشيخ وأخرون، مرجع السابق، ص- ص. 417-418.

82- أحمد توفيق المدني، حياة كفاح، ج.3،المصدر السابق، ص-ص. 166-167.

83-يراجع المصدر نفسه

84-المصدر نفسه ، ص- ص .203-204.

85-عبد القادر خليفي ،المرجع السابق، ص 193.

كتاب :"هذه هي الجزائر" بالقاهرة عام 1957م،وجعله تعريفا بتاريخ الجزائر وثورتها،وهو من كتب الدعاية السياسية والإعلامية.[86] وساهم في فكرة هذا الكتاب الدكتور فؤاد جلال، إذ هو من طلب إلى أحمد توفيق المدني بإلحاح كتابته،وأوصاه أن يكون كتابا عربيا مختصرا عن الجزائر في ماضيها، وحاضرها، يصف ثروتها وخيراتها،كما يعلم عن الاستعمار الفرنسي، وعن الثورة وأحداثها ونظامها، ومنهاج جبهة التحرير.ووعد الدكتور فؤاد الذي كان يرأس مؤتمر الخرجين العرب بأنه هو من سيتولى طبع الكتاب ونشره[87].ورسم رسام يوناني كسيح واجهة الكتاب.[88] وبعد صدوره أثنى الرئيس جمال عبد الناصر الذي حصل على نسخة منه عن طريق مؤلفه كهدية،على هذا العمل الذي عرّف بالجزائر وكفاحها الدامي[89].

واستغل أحمد توفيق المدني كل وسائل الدعاية للقضية الجزائرية ومنها المذياع، و رغم أن مذياع القاهرة ومذياع صوت العرب لم يتأخرا عن القضية الجزائرية إلا أن أعضاء الوفد الخارجي،قد اتفقوا مع السلطة المصرية على إذاعة أحاديث خاصة باسم الوفد الرسمي لجبهة التحرير الوطني يوميا. وكانت البداية إذاعة خاصة باللغة الفرنسية، كل يوم منذ أواخر يونيو عام 1956م، ودامت إلى أن تحطم مذياع القاهرة على إثر حوادث العدوان الثلاثي. كما فتحت سلسلة أحاديث يومية في مذياع" صوتالعرب" باللغتين العربية والفرنسية، وفتحت أحاديث أخرى يومية موجهة إلى أوروبا وإلى فرنسا، منذ 3 أغسطس1957م.وكذا اشتغلت إذاعة موجهة إلى أمريكا الجنوبية وباللغتين الاسبانية والبرتغالية،وإذاعة خاصة للباكستان وإيران وغيرها.[90] وطبعا ساهم المدني في كتابة الحديث الاذاعي وقراءته وتوصيل صوته، إما معرفا بالقضية الجزائرية، أو مخاطبا المجاهدين الجزائريين في بعض القضايا السياسية الحساسة.[91]

وإلى جانب المذياع سخرت النشرات والمؤتمرات الصحفية سواء في القاهرة أو في غيرها من البلدان، كلها استخدمها أحمد توفيق المدني لدعم الثورة. وظهرت براعته في إدارة الامور والعمل الدبلوماسي في عدة مناسبات نذكر منها:

-دوره في تهدئة النفوس وطمأنة المجاهدين والرأي العام العالمي بقوة الثورة الجزائرية، بعد حادثة اختطاف أو قرصنة الطائرة المقلة لوفد جبهة التحرير الوطني، يوم 22 أكتوبر 1956م، حيث ألقت السلطات الفرنسية القبض على القادة الخمسة: أحمد بن بلة،محمد خيضر، حسين ايت أحمد، محمد بوضياف، مصطفى

86-أبو القاسم سعد الله ،المرجع السابق، ص –ص. 421-422.

87-أحمد توفيق المدني ،حياة كفاح ،ج3، المصدر السابق ، ص227.

88-المصدر نفسه، ص230.

89-المصدر نفسه، ص. 513.

90-المصدر نفسه،ص 508.

91-الصدر نفسه،ص- ص. 315-320.

الاشرف،الذين كانوا متوجهين من المغرب إلى تونس لأجل حضور مؤتمر مغاربي[92]. وفي هذه المرحلة الصعبة وبعد انتشار خبر الاختطاف الذي وصل إلى مسامع المدني يوم 23 أكتوبر عن طريق إذاعة "مونتي كارلو" الفرنسية،قام المدني بجمع رباطة جأشهوردّ على الرئيس جمال عبد الناصر في مكالمة هاتفية بينهما بهذه المناسبة،حين سأله عن رأيه في تأثير الخبر على الثورة[93]فقال متغلبا على الموقف :«الثورة سيادة الرئيس ثورة شعب، لا ثورة أفراد،الافراد يموتون ويؤسرون لكن الشعب لا يزداد إلا صمودا وثباتا، إذا وجد المدد والسلاح .»[94] وخاطب الشعب الجزائري على أمواج"صوت العرب" بهذه العزيمة والقوة لبث روح التفاؤل والعمل.[95]

كما قام بالتنسيق مع السلطة المصرية وعلى رأسها فتحي الديب،وعزت سليمان للوقوف في وجه هذه المشكلة. واتخذت بعدها إجراءات وتدابير سياسية تتناسب مع حجم الحادثة، ومن هذه الاجراءات إرسال برقيات احتجاج صارخ لكل ملوك ورؤساء الجمهورية، وكل رؤساء الوزارات العربية وملوك ورؤساء الدول الصديقة،وإلقاء خطاب على أمواج "صوت العرب" للشعب الجزائري والمجاهدين لطمأنتهم باستمرار الثورة، خاصة وأن فرنسا أخذت تروّج "أن رأس الثورة قد قطع"، وعقد الندوات الشعبية في القاهرة لاستثمار الموقف والدعاية للثورة،والتشهير بالقرصنة الفرنسية.[96]

وأثمرت هذه الجهود عن نتائج إيجابية،وناشدت الدول فرنسا بإطلاق سراح السياسيين المعتقلين،كما ازدادت قضية الجزائر انتشاراوقوة، وكسبت مزيدا من المتعاطفين، حيث تلقى المدني من كل من أرسل إليهم البرقيات،جوابا منهم،وخص بالذكر صالح الحرثي أمير الشارقة الذي عبر:«كان لبرقيتكم أكبر الاثر في نفسي وأننا لنشارككم في الاضراب العام، ونستنكر باسم إمامة عمان وشعبها اختطاف فرنسا الغاشمة لإخواننا الزعماء الابطال الجزائريين، ضيوف صاحب الجلالة سلطان مراكش وباي تونس، ونعتبر هذا الصنيع الاجرامي من أسوأ أعمال الاستعمار...فنحن العرب لا يزيدنا مثل هذا العمل من المستعمرين...إلا إيمانا بعروبتنا وتوحيدا لصفوفنا،وقوة في كفاحنا حيث كنا.»[97]

وساهم أحمد توفيق المدني في تهدئة الامور بين جيش التحرير، والقيادة التونسية بعد ذلك العدوان الفرنسي الاليم الذي حطم ساقية سيدي يوسف في 08 فيفري 1958م، المصادف ليوم سوق، إذ قامت كتيبة فرنسية بتدمير المدينة التونسية الحدودية الهادئة،ساقية سيدي يوسف،بهجمات خلّفت سبعين شهيدا و قرابة تسعين جريحا، أغلبهم ريفيون ولاجئون جزائريون. هذه الحملة العقابية قررها الجنرال "سالان"بموافقة"روبير

92-عاشور شرفي ،المرجع السابق،ص 276.

93-أحمد توفيق المدني ،حياة كفاح ،ج3،المصدر السابق، ص311-312 .

94-المصدر نفسه ،ص312.

95-ينظر نص الخطاب في المصدر نفسه ،ص- ص. 312-314.

96-المصدر نفسه،ص 314.

97-المصدر نفسه ، ص- ص. 315-316.

لاكوست" للانتقام من جيش التحرير،ومعاقبة التونسيين على موقفهم الداعم للثورة، وجزاء لهم لأنهم طالبوا قبل شهر من ذلك بالإجلاء التام للقوات العسكرية الفرنسية[98].

ورغم أن الموقف واضح بما لا يدع مجالا للشك، بأنه جزء من مخطط استعماري،وتجاوز لأعراف وتقاليد الحرب إلا أن بعض رجال حزب الدستور القديم ممن تواصلوا مع احمد توفيق المدني، الذي وصل إلى تونس علىإثر هذا الحادث في 05 مارس 1958 م ، أظهروا استياء واشتكوا من أعمال الجزائريين على الحدود وبما أحدثته تلك الاعمال من رد فعل فرنسي، الذي أدى إلى تحطيم ساقية سيدي يوسف، ومن المحتمل أن يتغير الموقف التونسي جراء ذلك. وكان رجال اللجنة من جهة أخرى وفي نفس الوقت، سمعوا أنباء مدسوسة عن الطرف التونسي،روجها بعض رجال المخابرات الفرنسية، مما كان سيعكر صفو العلاقات ويجرها ربما إلى ما لا يحمد عقباه.فأجرى على إثر ذلك أحمد توفيق المدني عدة اتصالات بقيادات حزبية دستورية،ومسؤولين رسميين ووضح الصورة كما يجب للطرفين،فتوجت مساعيه بإزالة الغموض،وتمّ تفويت الفرصة على الاستعمار الفرنسي،الذي كان سيضرب هذا بذاك. وغادر توفيق المدني تونس يوم 14 مارس تاركا الحالة على أحسن ما يرام ناصحا الطرفين بالحذر والتثبت،وعدم تصديق مختلف الاخبار[99].

وسلك أحمد توفيق المدني مسلكا أخر حكيما قويا خدمة للدبلوماسية الجزائرية، وذلك عندما كان ممثلا للجزائر لدى جامعة الدول العربية، وأثناء نشاطه الدبلوماسي بها،اصطدم بالمطالب والمطامع التونسية في الاراضي الجزائرية، التي ظهرت للعيان عام 1959م، حين طالب الحبيب بورقيبة بمراجعة الحدود التونسية مع الجزائر وليبيا، بدعوى أن حقوق تونس قد هضمت على أيدي الفرنسيين،وتجددت هذه المطامع عام 1961م على أمل تأييد الجامعة العربية لها تحت حجج واهية قدمتها تونس. وكان العرب يجهلون ما يخفيه الطرف التونسي في مطالبته باسترجاع أراضيه شمال البلاد وجنوبها، ومالوا إلى تأييده، لكن اعترض أحمد توفيق المدني سبيل هذا المشروع التوسعي التونسي، ووقف بحزم ضد كلمة جنوبها، لأن هذا الجنوب الذي تسعى تونس للحصول عليه هو أرض جزائرية وفقالخريطة المرسومة المتعارف عليها و أكد بالقول :" بأن كل تأييد لمطلب تونس في صيغته الحالية إنما هو وقوف علني ضد الثورة الجزائرية وضد أهدافها، وضد مجاهديها، والجزائر لا تتسامح أبدا مع أي معتد عليها وعلى ترابها ولو كان شقيقا أو صديقا ...."[100] وبذلك انتهت تلك القضية بسلام،ودفنت المطامع التونسية في الاراضي الجزائرية.

لقد كشفت هذه المواقف الدبلوماسية الثلاث عن حكمة الرجل وحنكته السياسية، وإيمانه العميق في الثورة المباركة وبوطنه،فلم ييأسمن نجاح الكفاح والمجاهدين رغم محنة اختطاف الطائرةالتي تحمل القيادة

98-عاشور شرفي ، المرجع السابق، ص189.

99-أحمد توفيق المدني ، حياة كفاح ،ج3،المصدر السابق،ص -ص 538-540.

100-المصدر نفسه، ص- ص. 734-736.

الثورية،ولم يسمح للعلاقات الاخوية الجزائرية التونسية بالانهيار، كما لم يسمح باقتطاع أجزاء من وطنه الجزائر، رغم أنه ولد وشبّ في تونس.

ضمن الوفد الخارجي استطاع أحمد توفيق المدني الوصول إلي مناصب حساسة و تحمل مسؤوليات عديدة،سواء على المستوى السياسي والدبلوماسي، أو المعنوي، وبقي بمعزل عن أي نوع من أنواع الصراعات.ونظرا لما كان يتمتع به من تكوين علمي ومعرفي وسياسي،وقدرة على الخطابة فقد استطاع أن يدير عدة مسائل كطلب المساعدات المالية والسلاح،والعناية بالطلبة الجزائريين، واستطاع أن يترأس مكتب القاهرة ابتداء من يوم 08 مارس 1957م،بعد الاجتماع الذي عقد بهذا التاريخ. ومكتب القاهرة نشأ ضمن هيئة الوفد الخارجي،وهو خاص بجبهة التحرير بالقاهرة،وضم إلى جانب الرئيس أحمد توفيق المدني، أحمد فرنسيس كاتب التنسيق، والعباس بن الشيخ الحسين، وحامد روابحية، وعبد الرحمان كيوان أعضاء، إلى جانب مجموعة أخرى في مهام معاونين. أما وظيفته فحددت بتنفيذه المهمات التي توكلها له لجنة التنسيق والتنفيذ،مع اهتمامه بالعلاقات مع الحكومة المصرية، والعلاقات مع الجامعة العربية، والاتصالات مع السلك الدبلوماسي بمصر،والاتصال مع الشخصيات والمنظمات المصرية والعربية،ومراقبة الصحف والإذاعة وكل وسائل الاعلام حول ما تصدره عن القضية الجزائرية، مع استغلالها لصالح الثورة. وكان من مهام المكتب أيضا القيام بمختلف الاعمال الادارية التي يحتاجها أعضاء الوفد، مع الاهتمام بالطلبة الجزائريين في مصر عن طريق ملحقه الثقافي [101].

وفي عام 1960م تلقى المدني رسالة من رئيس الحكومة الجزائرية المؤقتة انتدبه لتمثيل الجزائر بجامعة الدول العربية كمندوب دائم، كما عين إلى جانب ذلك سفيرا لدى حكومة الجمهورية العربية المتحدة، مما فتح له أبوابا جديدة ومهاما أخرى أدخلته الوسط الدبلوماسي من أوسع أبوابه، ولخصها المعنى في أربعة أمور:القضايا السياسية –قضية الميزانية –قضية السلاح –قضية الطلبة.[102]

-تمكن أحمد توفيق المدني من زيارة معظم الاقطار العربية والإسلامية في إطار مهامه الدبلوماسية والسياسية،كما اتصل منذ دخوله القاهرة عام 1956م،بمختلف الزعامات على رأسهم جمال عبد الناصر. وشارك في الندوات داعيا لدعم الثورة الجزائرية ماديا وسياسيا،حيث زار في الفترة ما بين 1956-1958 كل من ليبيا أربع مرات، وسوريا والعراق مرتين،وتونس خمس مرات، والكويت، ولبنان، والسعودية،والأردن، والسودان، والمغرب الاقصى،وإندونيسيا، والباكستان، وماليزيا وسنغافورة. والتقى في جولاته بالعديد من القيادات

101- أحمد توفيق المدني ، حياة كفاح ،ج3، المصدر السابق، ص –ص. 432-433.

102-المصدر نفسه ، ص- ص. 731-733.

السياسية والشعبية، سواء العربية أو غيرها كالملك سعود بن عبد العزيز،والملك حسين بن طلال،والأمير عبد الله السالمالصباح، والملك إدريس السنوسي، والرئيس أحمد سوكارنو[103].

واستطاع خلال تلك الزيارات واللقاءات وبدبلوماسيته المعهودة وموهبته الخطابية، إحداث تأثيرات كبيرة،فكسب تعاطفا واسعا ماديا ومعنويا لصالح الثورة التحريرية،بالإضافة إلى دعم الطلبة الجزائريين الذين يدرسون في مختلف الاقطار العربية على وجهالخصوص[104].

خاتمة

و في النهاية يمكن ان نستنتج أن مسيرة أحمد توفيق المدنيقدتميزت بالنضال المبكر لصالح وطنه وهويته الاسلامية والعربية وبقضايا المسلمين جميعا ، وجمع بين العملالسياسي، والتأليف التاريخي،والاصلاح الاجتماعي ، والعمل الدبلوماسي خلال الثورة التحريرية المجيدة. وكان التحاقه بالوفد الخارجي لجبهة التحرير الوطني بالعاصمة المصرية القاهرة مثمرا جدا ، أكسب الثورة الجزائرية مزيدا من الدعم والنجاح، واعتبرت ثقافته الواسعة وشخصيته المميزة وحنكته السياسية من بين عوامل نجاحه في الاعمال التي قام بها ،مما دعم الثورة الجزائرية حيث اعتمد على مختلف وسائل الاتصال ،كما تواصل مع قيادات سياسية رسمية وشعبية في مختلف الدول العربية والاسلامية،كما اهتم بالطلبة الجزائريين المتمدرسين بالقاهرة على وجه الخصوص و سعى جاهدا لتّذليل الصعوبات التي كانت تواجههم لإكمال مساراتهم العلمية فكان لهم نعم السند ونعم الموجه .

103-عبد القادر خليفي ،المرجع السابق ، ص. 201.ويمكن الرجوع الى مذكرات أحمد توفيق المدني، ج.3، المصدر السابق للاطلاع على هذه الزيارات كما وصفها المدني بنفسه.

104-عبد القادر خليفي،المرجع السابق ،ص.209.